رسائل "التحول الإيجابي" 1

صيانة الإخوان من آفات

الألسن والآذان

2012م

الشيخ /

يحيي سليمان العقيلي

صيانة الإخوان من آفات الألسن والآذان

يحيى سليمان العقيلي

٢٠١٢م

آفات اللسان وزلاته مما حذّر منه القرآن الكريم ، وتوعدت على الخوض فيه السنة النبوية ، فعاقبة آفاته وخيمة وآثامه خطيرة ، ودلالته على نقص الايمان وتواضع التقوى واضحة بيّنة :

قال تعالى: " إذ تلقونّه بألسنتكنم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم " (النور ١٥) وقال تعالى محذّرا ومتوعّدا :" وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا [الأحزاب:٥٨]. وتأمّل يارعاك الله في هذا الحديث العظيم :

روى الإمام أحمد والترمذي عن بلال بن الحارث رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ: ((إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى بها عليه سخطه إلى يوم يلقاه))(٢).ولذلك كان علقمة رحمه الله وهو أحد رواة هذا الحديث يقول: "كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث" .

اللسان هو ترجمان القلب، واستقامته عنوان لاستقامة الايمان، قال صلى الله عليه وسلم ((لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه))(البخاري) ، ذلك ان الايمان رقيب على اللسان وعلى قدر تمكنه في القلب يضبط اللسان ،ومن هنا جاءت تلك الوصية العظيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين أخبره بجماع الخير كله فقال: يا معاذ كفّ عنك هذا وأخذ بلسانه فقال معاذ: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ((ثكلتك أمك يا معاذ. وهل يكّب الناس في النّار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟) لأجل هذا كثر تحذير السلف وحذرهم من آفات اللسان ، فهذا ابو بكر الصديق رضي الله عنه يمسك بلسانه ويقول:" هذا الذي أوردني المهالك " ، وقال عمر بن

الخطاب رضي الله عنه: "من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به".

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يأخذ بلسانه ويقول: ويحك قل خيرا تغنم، واسكت عن سوء تسلم، وإلا فاعلم أنك ستندم . قال يحي بن معاذ : " القلوب كالقدور تغلي بما فيها وألسنتها مغارفها فانظر إلى الرجل حين يتكلم فانّ لسانه يغترف لك مما في قلبه حلو وحامض وعذب وأجاج وغير ذلك ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه "

فإذا كان ذلك التحذير في حق عموم الناس ،فهو في حق الدعاة أوجب ،فحري بالداعية أن يضبط سمعه ولسانه وان يتق الله فيهما ، وعلى قدر ذلك الضبط تكون استقامة الداعية . وان مؤشر تلك الاستقامة أن يسائل نفسه قبل أن يتحدث عن جدوى الحديث وفائدته ، ويستيقن خلوّه من الافات والزّلات، فإن ذلك التأني وتلك المحاسبة دليل على سموّ الايمان وتحكّم التقوى ونشوء الورع ،فإن كان خيراً تكلم وإلا سكت كما أوصانا رسول الله ﷺ حين قال: ((ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)) رواه البخاري ومسلم(٢).

وليحذر الداعية مما يمنّي به نفسه من مبررات تبيح له الخوض في أعراض الاخرين تحت ذريعة المصلحة وتبيان الحق والنصح والتحذير وغيرها من الاعذار .ومما يعين على ذلك ان يتذكر المرء انه مساءل عن كلماته امام الله ، فهي مسجلة في كتابه الذي لايغادر صغيرة ولاكبيرة الا احصاها قال تعالى : "ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا"(الاسراء ٣٦) وقال سبحانه "إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد " (ق:١٨)

فإذا كان هذا هو خطر اللسان على ايمان المرء واستقامته، وسلامة مجتمعه ، فإن مخاطره على مجتمع الدعاة أشد خطرا ، وآثاره أشد فتكا ، إذ هو مجتمع لمن قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ممن تربواّ على الايمان وعمرت قلوبهم بالتقوى ،واجتمعت قلوبهم على المحبة في الله ، وتعاهدت على نصرته ، وأدركت أن سر قوتها في سلامة البناء ،وصفاء الاعتقاد، ونقاء السرائر ،ووحدة الفكر ،وصدق المودة وقوة الاخاء ، لذا فإن الحذر من آفات اللسان وخطايا الاذنان ينبغي أن يكون أشد والوقاية منها أحوط، والبراءة منها ارجى .

إن ارتباط آفات اللسان بآفات الاذنان ارتباط عضوي ونفسي وعقلي ،فكلاهما سبب للاخر وطريق له وأثر من آثاره ، ولاعاصم منهما الا بإلتزام تقوى الله التي تعصم من الزلل ،ومن سقطات القول والعمل ، "ان الذين اتقوا اذا مسهّم طائف من الشيطان تذكّروا فاذا هم مبصرون ".

(ليس من جارحة أشد ضررا على العبد –بعد لسانه- من سمعه، لأنه أسرع رسول إلى القلب، وأقرب وقوعًا في الفتنة).

فسمعك صن عن قبيح الكلام

كصون اللسان عن

النطق به

فإنك عند استماع القبيح

شريك لقائه فانتبه[١][9]

آفات اللسان حقول لبذور الفتن :

وهل الفتن التي تصيب الدعوات وتؤدي لتنافر القلوب وتبادل الاتهامات وظهور الشقاق واستحكام الخلاف إلا حصيلة آفات اللسان والاذنان ،ولهذا أشفق الأولون على أهل الفتن، وحذروهم سوء العاقبة فكان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول:

(إياكم والفتن، لا يشخص إليها أحد، فوالله ما شخص إليها أحد إلا نسفته، كما ينسف السيل الدمن).

ويصور لنا قتادة بن دعامة رحمه الله، وهو أحد أجلاء التابعين، تجربة فتنة رآها، ويضع أمامنا نتائجها التي رآها فيقول:

(قد رأينا والله أقوامًا يسرعون إلى الفتن وينزعون فيها، وأمسك أقوام عن ذلك هيبة لله ومخافة منه، فلما انكشفت: إذا الذين أمسكوا أطيب نفسا، وأثلج صدورًا، وأخف ظهورًا من الذين أسرعوا إليها وينزعون فيها، وصارت أعمال أولئك حزازات على قلوبهم كلما ذكروها. وأيم الله! لو أن الناس كانوا يعرفون منها إذا أقبلت ما عرفوا منها إذ أدبرت لعقل فيها جيل من الناس كثير).

فإن (الفتنة إذا أقبلت: عرفها كل عالم، وإذا أدبرت: عرفها كل جاهل) كما يقول الحسن البصري سيد التابعين (العوائق. الراشد)

ولأجل هذا كانت هذه المذكرة :

التي هي من الذكرى التي تنفع المؤمنين ، نجدد فيها ماورد في أدبيات التربية الاولى ، من ترسيخ لعفة لسان الدعاة ،والتحذير من زلاتّه وآفاته ، إذ يلحظ المتأمّل في أوساط الدعاة اليوم ، ونتيجة لولوج الحركة في مجالات عامة تتعدد فيها الاراء وتتباين فيها النظرات وتشتّد فيها احيانا النقاشات ، وخوضها لغمار مجالات عامة نقابية وسياسية اعتادت على ممارسات اقتضتها طبيعتها ، وماتبع ذلك من تصّدي رموز الدعاة للشأن العام ،مما جعلهم معّرضين للقيل والقال ،وترداد الاشاعات والاتهامات ، فيتلقفّها البعض دون حصانة كافية من الثقة، وعصمة واقية من التقوى ،وحذر مطلوب من آفات اللسان والاذنان، فتلوك الالسن وتخوض مع الخائضين، وتقسو الالفاظ وتحتد النقاشات ، ويساء الظن وتتهم النوايا ،ويثور الشقاق وتطل الفتنة برؤوسها ، وإننا لنلحظ عجبا -احيانا -من كثرة القيل والقال في أوساطنا لدرجة الاصابة بالحسرة على ماكان من نقاء الصفوف وعفة السان والورع عن ترويج كل مايسمع في سابق ايام الدعوة .

ونعرض فيما يلي بعضا من تلك الافات ونماذج من تلك الزلّات ، وغرضنا من ذلك هو التنبيه والتذكير والتحذير ، فإن التمادي فيها له أخطاره على سلامة بناء الحركة الاسلامية ، وتهديدا لركيزة من ركائزقوتها وتبديدا لمصدر من مصادر قوتها ، فضلا عن آثارها الوخيمة على إيمان الفرد وذخيرة التقوى لديه .

اولا:نقل السماع دون تثبت :

هو سلوك مبدّد للقوى مشتّت للطاقات ،مبدّد للاذهان، مربك للخطوات ، أن يتسرّع الفرد في إذاعة كل مايسمع دون تروّ او تحرّ ، وقد عابه القرآن على فئة من الناس لم يفقهوا قواعد العمل الجماعي ولم يتأدّبوا بآدابه ، يتسرّعون في نقل الاخبار والاشاعات لينال أحدهم الاعجاب بقدراته والانبهار باتصالاته ، فضلا عما يكشفه ذلك من اهتزاز النفوس ، وارتجاج توازنها النفسي ، وضعف القلوب عن التعامل بالاناة والسكينة المطلوبة مع الاحداث والمواقف ، فقال جلّ وعلا:

(وإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً).

(والصورة التي يرسمها هذا النص، هي صورة جماعة في المعسكر الإسلامي، لم تألف نفوسهم النظام، ولم يدركوا قيمة الإشاعة في خلخلة المعسكر، وفي النتائج التي تترتب عليها، وقد تكون قاصمة، لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث، ولم يدركوا جدية الموقف، وأن كلمة عابرة وفلتة لسان، قد تجر من العواقب على الشخص ذاته، وعلى جماعته كلها ما لا يخطر له ببال، وما لا يتدارك بعد وقوعه بحال؟ أو ربما لأنهم لا يشعرون بالولاء الحقيقي الكامل لهذا المعسكر.) (في ظلال القرآن)

وإن من بشاعة هذا السلوك- ان يحدث المرء بكل ماسمع – أن وصفه صلى الله عليه وسلم بالكذب وحمّل صاحبه الاثم بقوله :"كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ"(ابوداود والحاكم وصححه الالباني) وفي رواية : (كفى بالمرء كذبا أن

يحدث بكل ما سمع) (رواه مسلم في المقدمة ٦ صحيح الجامع ٤٤٨٢) ، بل إنّ هذا السلوك مماكرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته لكراهة الله تعالى له ففي الحديث :" إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا . فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا . وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا . ويكره لكم قيل وقال . وكثرة السؤال وإضاعة المال " (مسلم) ، وشرح النووي القيل والقال بقوله: "وأما (قيل وقال) فهو الخوض في أخبار الناس ، وحكايات ما لا يعني من أحوالهم وتصرفاتهم."

واليوم نجد –وللاسف-في اوسطنا من يتساهل في نقل الاخبار والمعلومات بل ويتسرّع بنشر السلبيات والانتقادات ، وكأنه حاز قصب السبق في تحقيق انجاز هام للدعوة ، وماذاك الا للفراغ النفسي والقصور في تحقيق الذات فيعوضّه بذلك التسّرع بالنقل والنشر ، دون تورّع عن سلبيات ذلك السلوك وآثاره على مجتمع الدعاة ، وعلاج الامر : بالتروّي ...والتورّع.... والتفكّر....وضبط الاذنان واللسان .

ثانيا: التجريح والتطاول :

يؤلم مسامع المراقب لمسار مجامع الدعاة ومجالس النقاش والحوار ، ماستجد على ألسنة البعض من الفاظ ماكانت تسمع ، وغلظة في القول غير مألوفة ، واستخدام الكلام هو أقرب للهمز واللمز والتطاول والتجريح ، تأنفه مسامع الدعاة ممن شهدوا مراحل التأسيس والبناء الاولى للحركة، ويعتبرونه خروجا عما ينبغي من القول الحسن الذي تربّى عليه الدعاة امتثالا لقوله تعالى :"وقولوا للنّاس حسنا "، ونكوصا عما أرشدنا اليه كتاب ربنا:"وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إنّ الشيطان ينزغ بينهم إنّ الشيطان كان للانسان عدّوا مبينا".

يلتبس على البعض مفهوم الشجاعة الادبية في غلظة قوله ، ويظن البعض أن استخدام ذلك الاسلوب أبلغ في حجته وأحرى لقبول رأيه ، ويقلّد آخرون ماسمعوه من بعضهم فيظنّونه مما يجوز استخدامه ويسمح بفعله ، ويبرر البعض فعله ذاك بأنه مقتضى النصح الامين ،لاسّيما إذا كان الكلام والنقد موجه لقيادة العمل ،

ويتناسى أولئك أن مجامع الدعاة هي مجامع إخاء ومودة ، ولقاءات إيمان ومحبة ، وأنّ التواصّي بالحق مسبوق في سورة العصر بالايمان والعمل الصالح ، هما مقدماته وتوطئته وشروطه،وأن من دلائل الاخلاص في القول والصدق في العمل أن يتجرّد المرء من أهوائه ورغباته الدفينة ويتحرّر من قيود كبريائه ، ويتسامى على الانتصار لنفسه وحبّه لذاته ، والتي هي في حقيقة الامر -لمن يسبر أغوار نفسه ويحاسبها بلحظات صفاء وصدق-دوافع الغلظة في القول والتطاول والتجّريح ، فإن المرء اذا اعتبر رأيه جزءا من ذاته وعنوانا لشخصيته ودليلا على كبريائه ، كان حواره ونقاشه دفاعا عن الذات وليس عن الرأي ، فيشتّط امام مخالفيه ويحتّد أمام محاوريه .

قال بكر بن عبيد الله المزني:(لا يكون الرجل تقّيا حتى يكون تقّي المطعم، وتقيّ الغضب)

لقد أرسلها أبو بكر رضي الله عنه من وراء الصحراء إلى خالد بعد انتصاراته في العراق، أن:

(ليهنك أبا سليمان النية والحظوة، فأتمم: يتم الله لك، ولا يدخلنّك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدّل بعمل، فإن الله له المّن، وهو وليّ الجزاء...)[١]

وقال الشافعي محذرّا من العجب والترّفع : (من سامي بنفسه فوق ما يساوي: ردّه الله تعالى إلى قيمته).

رويدا ...رويدا إخوتنا وأحبابنا ، فإن مجامعنا ولقاءاتنا وحوارتنا إنما تهدى للحق وتستجلب الرشد بالكلمة الطيبة والحوار الكريم والجدال الحسن ، الذي يستجلب السكينة ويستّنزل الرحمة وتحفّه الملائكة ويذكر الله تعالى أهله فيمن عنده ، وليست الغلظة وليس التجريح من الشجاعة في شيء ، بل الرجولة ..والمروءة ...والوفاء تقتضي الاحترام النبيل، والتقدير الصادق ،والحوار الناضج ، التي هي دلائل النصح الامين . سئل إبراهيم الخواص الزاهد عن الورع ما هو؟ فقال: (أن لا يتكلم العبد إلا بالحّق، غضب أو رضي)[١][5].

كما إن الغالب على القضايا ذات الخلاف انها تتداول القضايا السياسية والنقابية والشأن العام والتي هي في جوهرها اجتهادات يسعى قائلوها للترجيح بين المصالح (اتّباعا لقاعدة الفقهاء في الحرص على أكبر المعروفين عند تعارضها، ولو بتفويت أدناهما، واحتمال أيسر العارضتين لإبعاد أعظمهما وأكبرهما. وأغلب هذه المواقف المنتقدة على الحركة مخرجة على هذه القاعدة في الموازنة بين مراتب المعروف والمنكر ودرجات المصالح والمفاسد، فما من تعاون مع حزب معيب، أو تصريح بثناء على فعلة حسنة من حاكم لم يتم إسلامه، أو ما شابه ذلك، إلا وللقيادات فيها تأويل مستخرج وفق هذا الافتاء.)-العوائق للراشد-

ألا إن الانصاف قرين العدل ودليل القسط والله يحب المقسطين ، وهم كما قال الطبري :" العادلين في أحكامهم ، القاضين بين خلقه بالقسط "

وهذا المبدأ قرره علي بن أبي طالب رضي الله عنه في زمن راجت فيه الفتن وتعالت فيه أصوات تنشد الباطل بدعاوى حق فقال:

(أنصفونا يا معشر الرعية. تريدون منا أن نسير فيكم سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر)[١]

وهذا يقتضي من الداعية الناصح المنصف أن تكون كلماته الناقدة بلهجة المحب، يحيطها الرفق واللين، والحرص على تحقيق المصلحة، والوصول الى الحق (إن نصيحة قادة العمل الذين يتحرون السير على موجب فقه الراشدين غير مواقف العلماء الجريئة في الإنكار على الظلمة والمبتدعة، وإنما ندعو نحن إلى مسارة لا في مثل هذه الأمور التي يحتاجها الناس في أمر معاشهم اليومي، بل فيما يتعلق بسياسة الجماعة الداخلية والخارجية ومواقفها العامة، وفي أيام الفتنة خاصة، خوفا من استغلال أصحاب الأغراض للنقد المعلن، أو اغترار المخلصين السذج وأصحاب التجربة القليلة بظاهرة، إذ تصبح النصيحة في موطن يوجد فيه مثل هؤلاء مترددة بين مصلحتين: مصلحة علانية النقد، ومصلحة عدم إتاحة فرصة لاستغلال المغرض أو لاغترار الساذج به. وبين ضررين: ضرر الاقتصار على إسماع النصيحة لنفر قليل فقط، وضرر الاستغلال والإغترار، فيعمل بالقاعدة الفقهية العامة في

دفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، وجلب أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وهي قاعدة أجمع الفقهاء على اعتبارها ويقرها العقل، وتوجبها التجارب الوافرة في تاريخ الإسلام القديم والحديث.)-العوائق للراشد-

فقول الخير من الإيمان، حتى أن الكلمة الواحدة لترفع صاحبها درجات، كما في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-:

(إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفع الله بها درجات)[1][3].

ومن اجل ذلك رغب في هذه الكلمات الخيّرة، فقال صلى الله عليه وسلم: (أطيبوا الكلام)[1][4].

ولايعني طيب الكلام المداهنة وعدم الوضوح في النصح او التردد في قول الحق مما يبرر به الغلاّظ في القول غلظتهم ، بل عادة ماتشهد مجالس الدعاة خلافا في الرأي، وتبيانا في وجهات النظر، ونقاشا حادا ولكن روح الاخاء الصادق ، ومراعاة المشاعر الاخوية شكّلت اطارا حاضنا وسورا حصينا ضد التطاول والتجريح ، واذا مازّل لسان في لحظة تعصّب لرأي فسرعان ماتؤوب القلوب ويسود الاخاء ويبادر المختلفون للاعتذار الاخوي.

روى الشيخ العلاّمة محمد الحسن الددو أنّ الاخوة في التجمع اليمني للاصلاح وأثناء نقاش أحد القضايا لتحديد موقف التجمع منها ، وقد اشتد الخلاف بين فريقين في مجلس الشورى ، فشكلوا لجنة شارك هو فيها واستمعت لحجة الفريقين ، ثم عرضت الامر على المجلس برئاسة الشيخ عبدالمجيد الزنداني الذي تبنى أحد الرأيين ، على خلاف رأيه هو، فقال كلمة تكتب بماء الذهب لمجامع الدعاة :" لأن نجتمع على رأي مرجوح خير من أن نفترق على رأي راجح" في دلالة واضحة على اهمية جمع الكلمة ووحدة الصف في وقت الخلاف.

ثالثا: تقديم سوء الظن على الاعذار واحسان الظن :

نلحظ قبولا متسرعا لإساءة الظن ،ونزوعا لقبول قالة السوء ، لايردعه ماكان ينبغي من التزام الادب الايماني الرفيع "إحسان الظن" استجابة لأمر الله "يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظّن إن بعض الظّن إثم" ولحديث رسول الله صلى

الله عليه وسلم الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إياكم والظّن فإن الظّن أكذب الحديث ولا تجسّسوا ولا تحسّسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا " رواه البخاري

وكأنّ رسوخ "احسان الظن "في القلوب لم يعد كافيا برصيد يدفع سوء الظن ويحاصره حين يرد وارده على الخاطر ،بل صار سوء الظن مقدما احيانا على حسنه -وللأسف- في اشارة الى تواضع الايمان وغلبة نزغات الشيطان في النفوس. عن الحسن قال : " كنا في زمن الظنّ بالناس فيه حرام ، وأنت اليوم في زمن اعمل واسكت وظن في الناس ما شئت ". قال تعالى :"لولا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين ".

ورد أن أبا أيوب خالد بن زيد الأنصاري قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها. قال : نعم ، وذلك الكذب ، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت :لا والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك ".قال القرطبي :" ولأجل هذا قال العلماء :" إن الآية أصل في أن درجة الإيمان التي حازها الإنسان ؛ ومنزلة الصلاح التي حلها المؤمن ، ولبسة العفاف التي يستتر بها المسلم لا يزيلها عنه خبر محتمل وإن شاع ، إذا كان أصله فاسدا أو مجهولا ."

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : "ولا تظنّن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرا وأنت تجد لها في الخير محملا "

لكنه اللسان الذي أشار إليه عمر بن الخطاب فقال:

(لا يعجبّنكم من الرجل طنطنته، ولكنه من أدّى الأمانة وكفّ عن أعراض الناس فهو الرجل)[3].

طنطنة التفاخر والتفيقه، وأمانة الدعوة، وأعراض الدعاة العاملين. وهذا ما يقرره الأستاذ المرشد الهضيبي (يرحمه الله)، فإنه يري أن أكثر الشرور تبدأ بالغيبة ويقول:

(وليعلم المسلم أنه لا يكون مسلمًا حقا إلا إذا أصبحت عقيدته جزءا لا يتجزأ من أخلاقه وسلوكه، فيكون عادلا مع الناس جميعا ويحذر نوازع الهوى أن تميل به عن هذا العدل مع أقرب الناس إليه، فلا يذكر إخوانه بسوء ولا بغتابهم، ولا يلمزهم، فإن أكثر الشرور إنما تنشأ عن مثل ذلك)[١]

إن سوء الظن منّبت الشقاق والتفكك والضعف في البناء الجماعي ، وانما تتباعد القلوب وتتنافر اذا تمكّن سوء الظن منها ، ولايتمكّن الا بوجود بذور للشيطان في القلوب من نقص الثقة ،وسماع سوء وجد قبولا في القلب ، ينبغي أن يتنّزه عنه الدعاة سلامة لقلوبهم وصحة لإيمانهم وتماسكا لصفهم واستدامة لأخوتهم.

وصدق من قال :" ان الكرام يتعاملون فيما بينهم : بالمروءة...واحسان الظن .. والعفو عن الزلات "

رابعا : مجالس النجوى ومجاميع الضغط :

طرأ على بيئتنا الدعوية –على حين غفلة وسكوت وتسامح- جلسات واتصالات ورسائل هاتفية بين مجاميع من افرادها ، تلتقي على موقف ما ،قرار سياسي او ترشيح انتخابي او دفع لمنصب قيادي او لتشكيل ضغط على قيادة العمل ، وهذا سلوك غير حميد مهما وضع له صانعوه من مبررات وتأويلات ، لأنه شرخ في ممارسة الشورى الشرعية الصحيحة ،وانحراف عما ينبغي ان يكون عليه الافراد من نظر متجّرد يتحرّى فيه الحق ومصلحة الدعوة دون تأثير او ضغوط .

(لقد أظهرت لنا التجارب الكثيرة أن معظم التناجي يؤدي إلى الخروج ونكث البيعة، ولا تتجاوز أن يكون مرحلة أولية للماشي في درب الفتنة، دري أو لم يدر، ولا يتجاوز حجة المتناجي أن تكون هي نفسها حجة الخارج، كلاهما يدعي أنه يريد مصلحة الإسلام، وأنه يمارس ضربا من العبادة، والخطأ يلفهما لفا.

وأما المشرف على ضلالة، فإنه يتوارى مع صحب له عن العيون، ويكتم سرّه عن الجماعة، ويبثه لمن يهواه، فيؤز بعضهم الحميّة النفسية في البعض الآخر، فيكون حنق، فتثبيط، فتسويغ لا يبرأ من تدليس، فإذا هو افتتان.

تلك التي عرفها عمر بن عبد العزيز فقال: "ما انتجي قوم في دينهم دون جماعتهم إلا كانوا على تأسيس ضلالة"

وهذه هي بداية كل بدعة في تاريخ المسلمين، تبدأ بالنجوى، ثم يكون الاستدراج.) (العوائق للراشد)

إن تقديرات سيد قطب رحمه الله لمجالات النجوى المذمومة في القرآن الكريم تلتقي مع هذا الذي نقول: ويذهب لأبعد ممن يتوهم أن الله تعالى قد ذم النجوى في حياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقط. فهو يعقب على الآية الكريمة.

(لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا).

فيقول:(لقد تكرر في القرآن النهي عن النجوى، وهي أن تجتمع طائفة بعيداً عن الجماعة المسلمة وعن القيادة المسلمة، لتبيت أمراً. وكان اتجاه التربية الإسلامية واتجاه التنظيم الإسلامي كذلك أن يأتي كل إنسان بمشكلته أو بموضوعه، فيعرضه على النبي -صلى الله عليه وسلم- مسارة إن كان أمراً شخصياً لا يريد أن يشيع عنه في الناس: أو مساءلة علنية إن كان من الموضوعات ذات الصبغة العامة، التي ليست من خصوصيات هذا الشخص.

والحكمة في هذه الخطة، هو ألا تتكون جيوب في الجماعة المسلمة، وألا تنعزل مجموعات منها بتصوراتها ومشكلاتها، أو بأفكارها واتجاهاتها، وألا تبيت مجموعة من الجماعة المسلمة أمراً بليل، وتواجه به الجماعة أمراً مقرراً من قبل، وتستخفي به عن أعينها، وإن كانت لا تختفي به عن الله، وهو معهم)

ولو سئل من يمارس تلك النجوى عن دوافع تلك الممارسة ،أليس المرجو أن يتوصل الى القرار السديد والفرد الاصلح والموقف الارشد ، ألا يعني اللجوء لتلك الممارسة

نقصا في الثقة بمجالس القرار واعضاءها ؟ أليس فيها اتهاما مسبقا للآراء الاخرى بالنقص ؟ أليس فيها استعجالا للبت في القرار مسبقا قبل ان يأخذ حقه في المناقشة والتمحيص ؟ والاشد انكارا على تلك الممارسة عندما تهدف لتولية احد الاعضاء في مجلس قيادي او ترشيح انتخابي ، وأين ذلك من المبدأ النبوي :"إنّا لا نولي هذا الامر من سأله أو حرص عليه " كيف يسعى بل كيف يقبل اخ داعية لنفسه أن يسعى لتنصيب نفسه وتوليتها وهو يعلم حقيقة امانة المسؤولية امام الله ؟؟

أخرج الإمام الطبري بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر رضي الله عنه قال لناس من قريش : "بلغني أنكم تتخذون مجالس ؟! لا يجلس اثنان معا حتى يقال : من صحابة فلان ؟ من جلساء فلان ؟ حتى تحوميت المجالس(أي صار لكل مجلس حميته وعصبتيه) .... وأيم الله إن هذا لسريع في دينكم سريع في شرفكم ، سريع في ذات بينكم ، ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول : هذا رأي فلان ..... قد قسموا الإسلام أقساما ، أفيضوا مجالسكم بينكم ، وتجالسوا معا فإنه أدوم لألفتكم وأهيب لكم في الناس "

في هذا النص المهم نجد إدراكا مّبكرا من أمير المؤمنين عمر لخطر الفرقة في الدين وهو الدّاء الذي عانت منه الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل وما زالت كذلك ، وإنه لدلالة واضحة على أنه كان ملهما محدّثا كما أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن هذا الدين لا يقوم إلا بالجماعة واجتماع الكلمة، وقد يبدأ التفرق في الدين بأمر يسير لا يقيم له الناس وزنا، ولكنه يتطّور حتى يكون سببا في التفرق والخلاف .(مواقف تربوية – د. عبد العزيز الحميدي)

من أجل ذلك أوصى فقه الدعوة أن من لم يتعّظ فيسارع إلى تنقية نيته: سارعنا نحن إلى تنقية الجماعة منه.

بها جزم الإمام البنا فقال:

(إن الإخلاص أساس النجاح، وإن الله بيده الأمر كله، وإن أسلافكم الكرام لم ينتصروا إلا بقوة إيمانهم وطهارة أرواحهم، وذكاء نفوسهم وإخلاص قلوبهم، وعملهم عن عقيدة واقتناع جعلوا كل شيء وقفا عليها، حتى اختلطت نفوسهم بعقيدتهم، وعقيدتهم بنفوسهم، فكانوا هم الفكرة، وكانت الفكرة إياهم، فإن كنتم كذلك ففكروا، والله يلهمكم الرشد والسداد، واعملوا، والله يؤيدكم بالمقدرة والنجاح، وإن كان فيكم مريض بالقلب، معلول الغاية، مستور المطامع، مجروح الماضي، فأخرجوا من بينكم، فإنه حاجز للرحمة، حائل دون التوفيق)[1][3].

خامسا: قبول مقالة السوء دون تحر

لعل حادثة الافك كانت من أخطر مواقف الافتراء والاتهام الظالم التي مرت على أمة الاسلام ، وهي ذاتها تمثل أبلغ المواعظ التي عاتب بها القرآن الكريم الامة بشأن الترهيب من ذلك السلوك البغيض ، فجاءت كلمات القرآن بليغة، شديدة الوقع، حاسمة ،وقاطعة تجاهه،

قال تعالى: "إذ تلقّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينّا وهو عند الله عظيم " ويعني بقوله : { تلقونّه } تتلقون الإفك الذي جاءت به العصبة من أهل الإفك ، فتقبلونه ، ويرويه بعضكم عن بعض ؛ يقال : تلقيت هذا الكلام عن فلان ، بمعنى أخذته منه ؛ وقيل ذلك لأن الرجل منهم فيما ذكر يلقى آخر فيقول : أو ما بلغك كذا وكذا عن عائشة ؟ ليشيع عليها بذلك الفاحشة ،وقال مجاهد : { إذ تلقونه بألسنتكم } قال : تروونه بعضكم عن بعض بألسنتكم وتلقيكموه بعضكم عن بعض ، هيّن سهل ، لا إثم عليكم فيه ولا حرج .

وهذا عبد الله بن عكيم، يقرر مبدأ دقيقا في أثر قالة السوء على مسيرة الدعوة ، بحسّاسية التقّي وشفافية المؤمن ، فيقول:

(لا أعين على دم خليفة أبداً بعد عثمان).

وكانت كلمة مثيرة منه حقا.

ما لهذا الشيخ البريء المؤمن الذي لم يرفع في وجه عثمان سيفا أبدًا يتّهم نفسه ويلومها على ما لم يفعل؟

وينبري جزئ لسؤاله:

(يا أبا معبد: أو أعنت على دمه..؟ فيقول: (إني لأرى ذكر مساوئ الرجل عونا على دمه)[١][13]. إنها حسّاسية النفس الصادقة في توبتها ينطق بها ابن عكيم، مع أنه ما كان يكره عثمان حين تفوّه بتلك الكلمات، فإن ابنه يقول:

(كان أبي يحب عثمان)[١] . إن الجيل الجديد من رجال دعوة الإسلام الحديث –إذ هو يتفقه اليوم في حلقاته الدراسية لاستدراك ما صنعته فتن الأمس- مدعو إلى ملاحظة المغزى العظيم المهم لقصة عبد الله بن عكيم، وتجربته الصادقة.

لا تكن ساذجًا أيها الداعية، فإنها تحرشات من حولك لسفك دم الدعوة.

احذر، والتفت إلى عيب نفسك، وصن سمعك وسارر بنصيحتك ونقدك، ولا تعن بلسانك.

إنه دم الدعوة.(العوائق) ولنستمع لأستاذنا الراشد وهو يحكي قصة توبة صادقة للأستاذ صالح عشماوي رحمه الله مثلاً لمن يتصدرون الفتنة لعلهم بقصته وتوبته يقتدون . يقول :

"كان الأستاذ رحمه الله ورفع درجته من قدماء الدعاة ورجال الرعيل الأول، ولبث مع الإمام المؤسس دهراً كأحسن ما يكون الداعية عملاً، وأصبح عضو المكتب، فلما قُتل الإمام رحمه الله والمحنة جاثمة: اختلطت أوراق، واشتبهت أمور، وتحركت وساوس، فافتتن نفرٌ ، وجعلوا الأستاذ رأساً عليهم، ثم مرّت السنوات الحالكة، وطالت المحنة، فندم على ما كان منه، وطلب أبلغ صور التوبة النصوح .

وقد زرتُ دار مجلة الدعوة يوماً فوجدت شيخاً وقوراً يجلس بتواضع على كرسي خيزران قديم خارج باب الشقة كأنه بواب، ولكنه مهيب، وله طلعة نورانية .

فسلمتُ عليه واستأذنته، فأذن، فدخلت، فقال لي أخ ممن هناك: هل عرفتَ ذاك الرجل المحترم الذي كأنه بواب؟

قلت: لا، لكنه استرعى اهتمامي ..

قال: ذاك صالح عشماوي، يرى ان نفْسَه استروحت يوم جَعَله المشاكسون رأساً ونادوا به أميراً، وعزم على أن يرجع جندياً في آخر الصف، ويصر على أن ذلك من تمام توبته، فاختار أن يكون بواباً، ولو يعلم أن هناك منزلة أدنى من منزلة البواب لسارع اليها، يلغي بذلك ما سَلف منه من تطلع للصدارة، فعجبتُ ودهشت لهذه الروح الصافية والقلب الكبير .

ثم قال لنا الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله: دعونا له، ودعوناه ان يكون أخاً لنا يشارك كالآخرين، ويتوب الله على من تاب، ولكنه أبى ورفض، وأصررنا وبلغنا غاية الجُهد في إقناعه، لكنه أصر إصراراً على أن يعاقب نفسه بالتأخير ..

ثم خطبنا الأستاذ عمر رحمه الله بعد سنوات فقال :

لقد تاب الأستاذ صالح عشماوي توبة أحسبها لو وزعت على دعاة الإسلام في القاهرة جميعاً لوسعتهم."(العوائق)

ميثاق الأمن الدعوي .. ..

وخَطب فينا هُمام أحزنه جدلٌ قعد بدعاة الإيمان، فنطق بحروف حري ان تخط بقلم كوفي عريض، معلناً فينا دستور حقوق العمل الإسلامي .

قال جزاه الله خيرا وزاده فصاحة .. .. ..

(إن تشخيص أخلاق الرجال واجب .. لأن السلوكيات تكرر في الأجيال .. .. وتتجدد الأنماط النفسية حتى لكأن نسبا واحدا يجمعها .. .. وقد يلجأ الأمير الى حماية الجماعة بسياسة الحزم .. .. فيرفض التمييع والتردد والمواقف القلقة .. .. وفقه الضرورات ومنهج الاحتياط رديف لفقه الموازنات المصلحية .. .. وإن شرعية الاختلاف لا تلغي أفضلية الاتفاق .. .. والآمال العريضة لابد لها من نفوس عالية .. والتأصيل أساس في درء الفتن .. .. والنص الشرعي حجة .. .. وأما التحليل فلكل مورده .. .. ولا يكون الاجتهاد حجة على اجتهاد آخر .. .. إنما اجتهاد الأمير مقدم .. .. وينبغي أن يغلب العقل العواطف .. .. وليست الجماعة حشد أسماء .. .. وإنما كتلة قلوب .. .. تقودها قيم (العوائق)

سادسا : الاستجابة لمثيري الفتن :

يلحظ المتابع لوسائل التواصل الاجتماعي ، وتأثير الاطروحات التي يتبناها بعض المثيرين للجدل الفكري والعقائدي ، أن هناك تأثرا مستغربا لبعض الدعاة وخصوصا من فئة الشباب ، والاكثر غرابة أن يكون التأثير على أصول عقائدية ومفاهيم أساسية في البناء الايماني والفكري للأعضاء ، ويبدو أن تأثير بعض دورات التنمية الذاتية والتطوير القيادي الداعية للتحرر الفكري ، والاستقلالية الفكرية ، والمبالغة في البعد الفلسفي حتى لمبادئ العقيدة وأصول الفهم ،ساهمت في ضعف الحصانة الفكرية لدى المتأثرين ،فضلا عن النزوع المبالغ فيه للتغيير أيا كان موضوعه وطبيعته ، ومن هنا فان ما يؤكد عليه المربّون من ضرورة رسوخ البناء الشرعي، وترسيخ قواعد الفهم الصحيح للإيمان والاسلام ولأحكام الشريعة ، مما يؤمنّ الدعاة ولاسيما الشباب منهم من التأثر السلبي امام هذا الفضاء المفتوح من الاطروحات والآراء ، فضلا عما ينبغي من التحّرز من تبّوأ المشبوهين في افكارهم لمنابر التثقيف والتدريب والتوعية ، وليس انغلاقا وحجرا للعقول بل هو وقاية مطلوبة وحماية حكيمة مما يشتت الاذهان ويبدد القوى ويثير الحيرة ، وقد اتخذها السلف الصالح منهجا حكيما يحفظ القلوب ويصون الاسماع ويحصن العقول

عن عائشة رضي الله عنها قالت : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ) قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (فاذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سّمى الله فاحذروهم) صحيح البخاري- صحيح مسلم.

اما ما يطالب به البعض من صوّابية الحوار والجدال مع الافكار الاخرى وعدم الانزواء والانغلاق بحجة اننا نملك الثقة بمنهجنا والمتانة الفكرية التي تحصننا من أي انحراف ، فهذا قول صحيح ولكنه يختص بمن ملك زمام الفقه والحصانة الفكرية والعلم الرصين ،وكان مقصود ذلك الجدال والانفتاح هو الدعوة الى الله والاقتناع بالفكرة الاسلامية ، وليست الجدلية الفلسفية التي تنتهج التشكيك باسم التحرر والتفكير الحر ، فهذا ليس جدلا بالتي هي احسن كما قال تعالى:" ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي أحسن "

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (سيكون في اخر امتي ناس يحدثونكم بما لم تسمعوا انتم ولا اباؤكم فايكم واياهم) صحيح مسلم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما (لا تجالس اهل الأهواء فان مجالستهم ممرضة للقلوب).

خاتمة .....

عنوان الاصلاح والتزكية لنفس الداعية ، وسبيل الطهارة والتنقية لقلبه، هو القدرة على ضبط حبّ الذات ، والسيطرة على نوازع النفس وكبريائها، وما نقص

شيء من الذات الا كان عوضه مزيد محبة عند الله وقبول عند الناس، فضلا عن تمكّن من تربية النفس وادارة الذات وضبط الجوارح ، وما يثمره ذاك من سكينة القلب، ونقاء السريرة ، وسلامة الصدر، وتوازن الشعور ، وطمأنينة النفس ، واستقامة السلوك.

وعلامة ذلك كله هو صيانة الاذنان واستقامة اللسان ، فهي برهان على نجاح التربية الذاتية وسمو الايمان ، وتمكّن التقوى ، واستحضار الاخرة .

"والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم "